آفاق الحضارة الاسلامية، أكاديمية العلوم الانسانية و الدراسات الثقافية
السنة الخامسة عشرة، العدد الاول، الربيع و الصيف ١٤٣٣ هـ.ق، صص ٢١ – ٣٩

رثاء الإمام الحسين(ع) فی ملحمة عيد الغدير

علی پیرانی شال*

حسين روستايی**

الملخص

تقصد هذه المقالة دراسة مضامين الرثاء الحسينی فی ملحمة «عيد الغدير» للشاعر المسيحی بولس سلامة بدءً بمقدمة فی أدب الطفّ، ومن ثمّ تتحدّث المقالة عن حياة الشاعر القاسية وآثاره، خاصة ملحمته الإسلامية الكبری التی نال بها الشاعر شهرة مدوية فی عالم الأدب؛ كما تشير إلی شخصيته التی دفعته إلی التصدی لها، العمل الذی يمثّل غنی روحه التی تسامت عن روحية معلبة؛ بعد أن أبدی رغبته فی نظم الشعر فی أهل البيت(ع)، خاصة الإمامين علی والحسين(ع)، و تغنّی بأمجادهم. فلم يكن باستطاعة الشاعر أن يسرد التاريخ من دون أن يبدی موقفه من هؤلاء الأطهار وهو يراهم كنموذج مثالی يحتذی؛ وهذه الدعوة من جانب شاعر مسيحی إلی التمثّل بالإمامين(ع) تستوقفنا أكثر حينما نعلم أنّه نظم ملحمته فی العام نفسه الذی احتلت فيه فلسطين. وهو بذلک يعتقد أنّ الأمّة العربية فی ذلک الزمن لأحوج ماتكون إلی التمثّل بأبطالها الغابرين. هذا و قد تجلّی انجذاب الشاعر بشكل خاصّ عند الحديث عن واقعة الطفّ، بحيث نجده يبكی ليلة نظم مصرع الحسين(ع) فيسطر بقلمه ما يبكی الآخرين. وهكذا فإنّه ومن خلال إظهار أحاسيسه ومشاعره المرهفة يخرج فی أحيان كثيرة علی التقليد المعروف فی الملحمة كنوع من الشعر اللاشخصی وذلک خروج لاتعيب منه ملحمته، بل نراها تنال إعجاب النقّاد واستحسانهم. وأخيراً تنتقل المقالة إلی تعداد مضامين رثاء الإمام الحسين(ع) فی ملحمة سلامة، من ذكر فضائله(ع) وبيان عظمة مصيبته وغيرهما ممّا ورد فيها.

الكلمات الرئيسة: الإمام الحسين(ع)، الرثاء، الملحمة، بولس سلامة.

---

* أستاذ مساعد بجامعة الخوارزمی pirani@tmu.ac.ir

** ماجستير فی اللغة العربية وآدابها من جامعة الخوارزمی hossainroostaei@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/١٢/٣، تاريخ القبول: ١٣٩١/٢/١٨

١. المقدمة

إنّ الرثاء من الموضوعات البارزة فی الشعر العربی وهو ذو إطار واسع؛ إذ يشمل رثاء الأهل والأقارب، كما يشمل غير ذلک من رثاء عظماء الدين وكبار العلماء. لكنّه قلّما يوجد أو لعلّه لا يوجد رثاء كتب له الخلود والتجدّد بحيث قيل فی موضوع و استمرّ ذلک الرثاء مع توالی العصور كالذی نشهده فی رثاء الإمام الحسين(ع)؛ فنحن نری فی دواوين الشعر والمجموعات الشعرية المختلفة مراثی كثيرة، إلاّ أنّها نظمت فی عهد دون آخر، وذلک لأنّها كانت تنحصر عند فقدان عزيز، أو فی اضطرار الشاعر لسكب الدموع أمام سلطان ما لينال حظوته. لكنّ وقعة الطفّ باعتبارها أكبر وقعة رسمت من خلالها ملاحم البطولة والفداء والعقيدة والإيثار، لم يشهد التاريخ مثيلاً لها، لم تمح صورتها عن وجه الأدب، لا أدب الشيعة وحسب، بل تجاوزته إلی آداب غيرهم من أصحاب الأديان والمذاهب الأخری. فثمة أدباء من أديان ومذاهب مختلفة كالمسيحية تأثّروا بواقعة الطفّ وما أصاب الحسين(ع) يوم عاشوراء، فتعرّضوا لأحداثها فی آثارهم وإبداعاتهم الفنّيّة، ومن هؤلاء، الشاعر الملحمی المسيحی بولس سلامة. إنّه أديب ذو رؤية عميقة وفكرة متعالية، حيث يتعرّض فی ملحمة أدبية عظيمة لمنعطفات مصيرية من تاريخ الأمّة الإسلامية، منذ فجر الإسلام وحتّی نهاية دولة بنی أمية. وقد اختصّ بولس سلامة الجزء الأخير من هذه الملحمة بموضوع عاشوراء وأحياها فی ملحمته بأسلوب مؤلم حزين، يتأثّر به كل قارئ ويتألم له. هذه الوقفة المشرّفة من الشاعر بعثتنا علی اختيار موضوع رثاء الإمام الحسين(ع) فی ملحمته. ترجو هذه المقالة أن تصل إلی الإجابة عن الأسئلة التالية:

١. كيف كان الشعر الحسينی الذی بدأ ينظم بعد استشهاد الإمام(ع)، من حيث حجمه؟ وما هو السبب فی ذلک؟ وما الذی كتب له الخلود والاستمرار إلی عصرنا هذا؟

٢. ما الذی دفع بمسيحی إلی التصدّی لتاريخ الإسلام وإبداع ملحمة إسلامية؟ وما الذی أثار انبهاره بأبطال المسلمين خاصّة الإمامين علی و الحسين(ع)؟

٣. ما هی مكانة ملحمة «عيد الغدير» فی الأدب وكيف كان موقف النقّاد منها؟

٤. إلی أیّ حدّ كان هذا الأديب المسيحی مندمجاً مع أبطال الاسلام؟ وإلی أی مدی كان شريک آلامهم و حليف راياتهم؟

٥. ما هی ميزة عمل الشاعر فی نظم ملحمته، خاصةً الجزء الأخير منها الذی يختصّ بأحداث كربلاء؟ هل اكتفی الشاعر بسرد الأحداث أم لمعالجتها ميزة تجلب الانتباه؟

٦. ما هی المضامين الرثائية الحسينية فی ملحمته؟

۲. عاشوراء والأدب

إنّ واقعة کربلاء وتأثیرها فی الأدب شیء لا نستطیع أن نجد له مثیلاً فی الوقائع الأخری التی عنی بها الأدباء فی آثارهم، وذلک بعد مضیّ فترة طویلة علیها؛ یقول محمّد جواد مغنیة:

> إنّ الحسین قد مضی علی استشهاده ألف وثلاثمئة سنة أو تزید، ومن یومه إلی یومنا هذا والأجیال من قومیات شتّی ینظمون فیه الأشعار بالفصحی وغیر الفصحی. وقد تغیّرت الحیاة ومرّت بالعدید من الأطوار وقضت علی الکثیر من العادات إلا الاحتفال بذکری الحسین والهتاف باسم الحسین نثراً وشعراً (شبر، ۲۰۰۱: ۱/ ۱۰).

إذن فعاشوراء قد ألهبت المشاعر والعواطف وخلّفت فی قلب الأدیب أثراً لاتزال نتیجته تظهر فی الأدب؛ فعند مراجعة التراث الأدبی نثراً أو شعراً نجد الکثیر الکثیر من المؤلّفات والقصائد التی عنیت بهذه المناسبة لا یمکن إحصاؤها. أمّا فی النثر فیختصر ذلک عامةً علی کتب التاریخ والمقاتل التی عرضت لما جری لآل البیت(ع) فی کربلاء بأسلوب مشبع بالحسرة والتفجع (نورالدین، ۱۹۸۸: ۷۹، ۸۰).

لکنّ لعاشوراء فی مجال الشعر صدی خاصّ متمایز؛ یقول محمّد شمس الدین:

> إنّ المسلمین الشیعة قد أنشأوا فی هذا المقصد [الرثاء الحسینی]، بأیة لغة تکلّموا من عربیة أو فارسیة، أعمالاً شعریة تتجاوز فی حجمها ما أنشأوه فی المقاصد الأخری (شمس الدین، ۱۹۹٦: ۱۳٦).

وفی ذلک رأی آخر لمحمد جواد مغنیة حیث یقول:

> ما عرفت البشریة جمعاء عظیماً من أبنائها قیل فیه الشعر ما قیل فی الحسین بن علی(ع)، ولو تصدّی متتبّع للمقارنة بین ما نظم فیه ونظم فی عظماء الدنیا لتعادلت الکفّتان أو رجحت کفة الحسین (شبّر، ۲۰۰۱: ۱/ ۱۰، ۱۱).

أمّا هذا الرثاء الحسینی الذی بدأ بعد قلیل من تلک الواقعة[1] والذی کان أخصب عصوره المدّة الواقعة ما بین استشهاده(ع) وبین نهایة الدولة العباسیة (نور الدین، ۱۹۸۸: ۸۳)، لتشجیع الأئمّة هذا النوع من الشعر وإکرامهم قائلیه وتحدّثهم عن فضل نظم الشعر فی فضائلهم ومصائبهم وثوابه العظیم عند الله تعالی (المصدر نفسه؛ الحسن، ۱٤۱۸: ۱۸٦)، هذا الرثاء الحسینی، لا یزال متدفّقاً حتی عصرنا هذا فی أشعار الأدباء. لکنّ السبب لم یقتصر علی ذلک بل تعدّاه إلی أسباب أخری من حبّ أهل البیت عند الشعراء وانجذابهم إلی شخصیة الإمام الحسین(ع) وطریقته، فمنهم من ینظم فیه مقتفیاً مسلکه ومرامه (خزعلی، ۱۳۸۳: ۱٦، ۱۷).

وهذه الأسباب كانت مما دفع الشعراء إلى أن يتّخذوا من تلك الواقعة موضوعاً يعالجونه فی شعرهم؛ خاصّة حين كان الشعر لا يزال مجالاً أوسع لبروز العواطف الكامنة المرهفة وبيانها وأنّ مأساة عاشوراء تمسّ المشاعر والأحاسيس أكثر من أیّ شیء آخر (نور الدين، ١٩٨٨: ٨٣).

يبدو ممّا ذكر أنّ واقعة الطفّ، بما رافقها من غلظة الخصم وفظاعته وقساوته من جهة، ومن جهة أخرى بما فيها من أهداف سامية، قد شغلت مجالات الأدب عامّة ومجال الشعر خاصّةً، دون أن يعتريه حدّ فيحدّده فی لغة واحدة؛ فإنّ لتلك الأهداف السامية التی أدّت بالحسين إلى القيام بتلك الثورة، مكانةً عند الشاعر الحسينی. وبما أنّها أهداف مطلقة لم يعرف لهاحدّ؛ فالحسين (ع) عندهم أكبر من الحدود. والأدب الذی ينطلق من ورائه ينبغی أن يكون كذلك. ومن هذا المنطلق كان هنا وهناک شعراء من مذاهب وأديان مختلفه جمعهم الحسين (ع) تحت لواء واحد فصاروا يعرفون بسيماء الحسين ويطلق على أحدهم عنوان الشاعر الحسينی. ومن هؤلاء الشعراء بولس سلامة الشاعر المسيحی[٢] الذی اختصّ الجزء الأخير من ملحمته[٣] بواقعة كربلاء، بعد تطرّقه لأهمّ أحداث التاريخ الإسلامی فيها.

٣. حياة الشاعر بولس سلامة و آثاره

شاعر لبنانی كبير؛ ولد فی بتدّين [بيت الدين] اللّقش إحدى قری الجنوب اللبنانی سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م[٤] (سلامة، بلاتا:١٠؛ البعلبكی، ١٩٩٢: ٢٤٠؛ شامی، ١٩٩٩: ٣/ ٩٦). انكبّ على دراسة التراث العربی وخاصّة سيرة عنترة، وكليلة ودمنة، وبعد انتهاء الحرب الكونية الأولى سنة ١٩١٨م دخل مدرسة القرية، مزرعة الظهر ثمّ انتقل إلى معهد الحكمة فی بيروت سنة ١٩١٩م. حاز على احترام سكان قريته وإعجابهم فانتخبوه لمنصب شيخ الصلح، وهو لم يكن قد جاوز الثامنة عشر بعد (نور الدين، ١٩٨٨: ١٢١، ١٢٢). إلّا أنّ شيخوخة سرت فی بدنه منذ سنة ١٩٣٦م (الضيقة، ١٣٧٧، العدد الثانی عشر/ ٢١٣) ورافقته حتى أحيل إلى التقاعد سنة ١٩٤٤م. ونظراً لسوء حالته الصحية[٥]، لقّب بأيوب القرن العشرين لشدّة صبره على الآلام التی اكتنفت حياته. توفی سنة ١٩٧٩م فی بيروت ونقل جثمانه إلى مسقط رأسه بتدّين فدفن فيها (نور الدين، ١٩٨٨: ١٢٢).

انصرف بولس سلامة فی حياته القاسية إلى التأليف ونظم الشعر. له فی النثر كتابان هما «حديث العشية» و «الصراع فی الوجود» وفی السيرة الذاتية «مذكرات جريح»، «حكاية عمرو»، «عيد الستين» (عيد، ٢٠٠٤: ٢٠، ٢١).

أمّا فی الشعر فكان من أصحاب الباع الطويل، خاصّة أنّه كان بارعاً فی نظم الملحمة؛ فقد

غلب النفس الملحمی علی کثیر من شعره (البعلبکی، ۱۹۹۲: ۲٤۰). وله فی هذا المضمار دیوان صغیر عنوانه «علی والحسین» وملحمة «عید الریاض» وملحمة «عید الغدیر» التی بها نال شهرة مدویة فی عالم الأدب، حیث لقّب بالشاعر الملحمی (نور الدین، ۱۹۸۸: ۱۲۲). فکانت ملحمته هذه هی أفضل ما یمثّل الملحمة الحقیقیة فی الأدب العربی الحدیث؛ وقد أجاد الشاعر فی نظمها إجادة تحلّه المحلّ الأوّل بین ناظمی الملاحم العربیة وترفع ملحمته إلی مصافّ الحسان من الملاحم الإفرنجیه بینما لم تکن أکثر الملاحم البطولیة التی ظهرت فی الأدب العربی إلّا محاولات لم تستکمل نضجها تماماً (المقدسی، ۱۹۸۸: ۳۹۵).

وقد تحدّث أسعد داغر عنه کشاعر ملحمی و أشاد به قائلاً: «إنّه فی الملحمة أنتج أدباً یقف جنباً إلی جنب مع الآداب الخالدة و أحیاناً یبتزّها» (داغر، ۱۹۸۳: ۳٤۹). کما أنّ مارون عبّود[٦] قال عنه:

> لا ریب عندی أنّ بولس سلامة هو أکبر شعراء الضاد نفساً ... قال ابن جنّی: من شاء أن یؤلّف فی النحو بعد سیبویه فلیستح. أجل فلیستح أولئک الذین یسمّون کراریسهم ملاحم بعد بولس سلامة (عید، ۲۰۰٤: ۳۸).

استغرق نظم ملحمة «عید الغدیر» ستة أشهر؛ ثلاثة منها انصرف الشاعر خلالها إلی دراسة المراجع التاریخیة وثلاثة للنظم (سلامة، ۱۹۹۰: ۱۱). وهی تتشکل من سبع وأربعین قصیدة یبلغ مجموع أبیاتها ۳٤۲۵ بیتاً؛ أمّا واقعة کربلاء فهی تشکل الجزء الأخیر منها فی ۱۱۷۵ بیتاً بدءً بوصف یزید وفسقه وتهاونه بالدین. وجدیر بالذکر أنّ لهذه الملحمة قصیدتین لا تتطرّقان إلی أحداث التاریخ بل تتوجّهان إلی دعوة الله ومناجاته، وهما قصیدة البدایة «صلاة» وقصیدة الختام «الخاتمة». هذا عرض کلّی لملحمة «عید الغدیر» ومکانة واقعة کربلاء فیها:

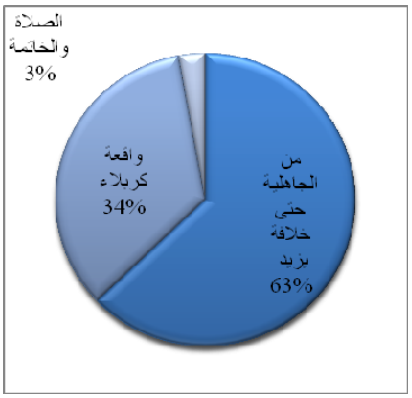

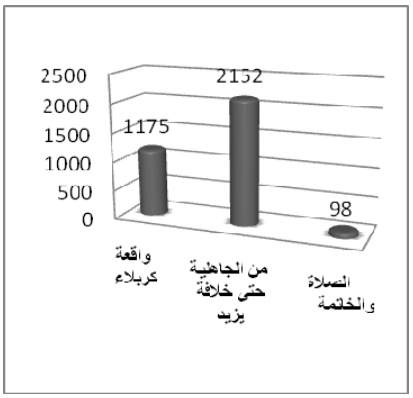

٤. شخصيته

جدير أن نقف هنا وقفة عند ملحمة «عيد الغدير» لكی نتعرّف عليها و على ناظمها؛ فقد ظهرت هذه الملحمة فی عام ١٩٤٨م وعكست تاريخاً حافلاً بالبطولات الإنسانية والأمجاد الأخلاقية والفروسية، وقد كان ظهور هذه الملحمة فی نفس العام الذی أعلن فيه عن قيام ما يسمّی بدولة اسرائيل؛ هذا الإعلان الذی يعكس بمرارة ما وصلت اليه الأمّة العربية والإسلامية من ضعف وتراجع (السيد، ٢٠٠٤: ٩). ولا نريد هنا أن نطيل الكلام عن احتلال فلسطين وما تبعه من نكبات أثّرت فی وجود كلّ إنسان كإنسان فما بالک بمن ينتمی إلی هذه الأمّة بعقيدته أو بمحتده. ولعلّ ظهور هذه الملحمة، بما فيها من البطولات الإنسانية والأمجاد الأخلاقية المتمثّلة بارزة فی الإمامين علی والحسين(ع)، فی نفس العام الذی احتلّت فيه فلسطين، كان يحمل فی طياته نظرة الشاعر نحو طريق فيها الحرية والنجاة من الظلم الذی يحيق بالأمّة العربية. وهی طريق تتمثّل فی منحی أبطال الإسلام الغابرين. ولعلّ أبرز من يواجهه الإنسان منهم فی أوّل نظرة فی تاريخ الإسلام هو الإمام علی(ع) وابنه الحسين(ع)؛ فالشاعر فی تلک السنة التی «كان الشعراء ينظرون [فيها] إلی ماوراء الضباب رأی فی رسالة الإسلام والرسول محمّد(ص) وأهل البيت(ع) ملحمة كبری، يمكن أن تهزّ وجدان الأمّة العربية؛ فقدّمها من أجل إضاءة سراج فی طريق الأمّة نحو حياة حرّة كريمة» (المصدر نفسه). هذا ونحن حين نتصفّح ديوان الشاعر وما قدّمه لملحمته نجد أقواله تأييداً لما ذكر آنفاً. فنراه يقول:

> إنّ العروبة المستيقظة اليوم فی صدور أبنائها ... لأحوج ما تكون إلی التمثّل بأبطاله الغابرين، وهم كثر. علی أنّه لم يجتمع لواحد منهم ما اجتمع لعلی من البطولة والعلم والصلاح. ولم يقم فی وجه الظالمين أشجع من الحسين فقد عاش الأب للحقّ وجرّد سيفه للذياد عنه منذ يوم بدر، واستشهد الابن فی سبيل الحرية يوم كربلاء، ولا غرو، فالأوّل ربيب محمّد والثانی فلذة منه (سلامة، ١٩٨٦: ٨).

أجل، بولس مسيحی يتصدّی لملحمة إسلامية؛ لأنّه يری أنّ التاريخ مشاع للعالمين. فينحنی أمام عظمة رجل يهتف باسمه مئات الملايين من الناس فی مشارق الأرض ومغاربها خمساً كلّ يوم. رجل ليس فی مواليد حواء أعظم منه شأناً (المصدر نفسه). ثم يؤثر من أصحاب النبی(ص) علياً(ع) لأنّه لا يری فی الكون أحداً اجتمع له ما اجتمع لعلی من البطولة والعلم والصلاح. كما لا يری أحداً أشجع من الحسين(ع).

نعم، كل ذلک رأی مسيحی ولا عجب فيما اعتقده الشاعر والذی أشير إليه ممّا ذكره الشاعر كمقدّمة لملحمته؛ لأنّ المسيحی قد يعيش الإسلام حضارة و روحاً وحركة وإنسانية، إذا

لم یعشه فی حالة انتماء، کما یعیش المسلم المسیحیة فی عناصرها القیمیة الأصیلة. وذلک ممّا یمثّل غنی الفکر الذی ابتعد عن الدائرة المغلقة، وغنی الروح التی تتسامی عن الروحیة المعلّبة (مجهول، ۲۰۰۹: ۵، ٦).

وبناءً علی ذلک نری الشاعر بولس سلامة یقول حول حبّه لأهل البیت(ع): «إذا کان التشیّع حباً لعلیّ وأهل البیت المطیبین الأکرمین، وثورةً علی الظلم وتوجّعاً لما حلّ بالحسین وما نزل بأولاده من النکبات فی مطاوی التاریخ، فإنّنی شیعی» (سلامة، ۱۹۸٦: ۱۲)، کما نراه ینشد هذا البیت:

جَلجَلَ الحَقُّ فِی المَسِیحِیِّ حَتَّی عُدَّ مِن فَرطِ حُبِّهِ عَلَوِیا

(المصدر نفسه: ۳۱۲)

فیبدو أنّ هذه الرؤیة نابعة من نظرة عمیقة قد أفاد بها الشاعر کما یتّضح من قوله بأنّه «مسیحی ینظر من أفق رحب لا من کوة ضیقة» (المصدر نفسه: ۱۰) فإنّ سلامة کما یقول الدکتور حسام الضیقة:[۷]

> واحد من أبناء الرسالة العیسویة التی بشّرت بالخیر والمحبة واتّباع الحق. فلا یمکنه لذلک إلّا أن یکون أمیناً مندفعاً وراء إشعاعاتها المتجسدة فی کلّ رجل عظیم تعبق فی روحه روحانیة العقیدة السماویة وتتملّکه عقلاً وروحاً وممارسة (الضیقة، ۱۳۷۷: العدد الثالث عشر/ ۱۵۳).

ولا عجب فی ذلک؛ قال الله تعالی خطاباً للنبی(ص): «وَ لَتَجِدَنَّ أَقرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَی» (المائدة: ۸۲).

۵. الرثاء

الرثاء من الموضوعات البارزة فی الشعر العربی. إذ طالما بکی الشعراءُ من رحلوا عن دنیاهم وسبقوهم إلی الدار الآخرة (ضیف، ۱۹۸۸: ۵). وهو یعنی فی اللغة البکاء علی المیت کما جاء فی لسان العرب: «رثی فلاناً یرثیه رثیاً ومرثیة إذا بکاه بعد موته. فإن مدحه بعد موته قیل رثاه یرثیه مرثیة ... ورثوت المیت إذا بکیته وعددت محاسنه وکذلک إذا نظمت فیه شعراً» (ابن منظور، بلاتا، مادة رثاء). والندب من أقسام الرثاء الثلاثة[۸] وهو یعنی بکاء الأهل والأقارب حین یعصف بهم الموت؛ فیئنّ الشاعر ویتفجّع وینظم الاشعار ویبثّ فیها لوعة قلبه وحرقته. لکنّه لم یقتصر علی الأهل والأقارب فحسب بل یندب الشاعر من ینزلون منه منزلة الأهل والأقارب. ومراثی الشیعة من خیر الأمثلة التی تصوّر ذلک (ضیف، ۱۹۸۸: ۵).

وقد كانت واقعة كربلاء وما حلّ بأهل البيت النبوی يوم عاشوراء من أقسی المشاهد التی يمكن أن يشهدها البصر أو يسمعها السمع. فإنّ قساوة الخصم وفعلهم الجرىء بأهل البيت النبوی ممّا لا يمحی أثره عن أذهان محبّيهم، بل قد هيج قلوبهم وألهب أحاسيسهم وأظهر أثره فی آدابهم.

٦. رثاء الإمام الحسين (ع) فی ملحمة «عيد الغدير»

لقد عالج الشاعر واقعة كربلاء فی الجزء الأخير من ملحمته الإسلامية كما ذكرنا آنفاً؛ لكن لم تكن هذه المعالجة سرداً تاريخياً فحسب، بل وقف الشاعر كثيراً عند سرد التاريخ أو بعده أو فی أبيات مستقلّة عنه، وقف عند أحداث الواقعة فتراه يتأثّر حيناً بمشاهد كربلاء ثمّ يصفها ويظهر تأثّره بأشكال مختلفة؛ لأنّه بولائه لأهل البيت وشغفه بهم لا يستطيع أن يسرد التاريخ دون أن يتحدّث عن مشاعره وآلامه.[٩] وعن ذلک يقول الدكتور حسام الضيقة فی الحديث عن الملاحم وعن ميزاتها كنوع من الشعر اللاشخصی الذی يتوارى فيه الشاعر خلف القصيدة بأنّ هذا التقليد الذی بدأ مع هوميروس[١٠] لم يكن شاعر ملحمی بعده ملتزماً به. وبولس سلامة أيضاً خرج علی هذا التقليد، إمّا بالحديث المباشر عن نفسه وإمّا بالشعور الذی يخلعه علی أبطاله (الضيقة، ١٣٧٧: العدد الثانی عشر/ ٢١٤). فبذلک نراه فی هذه الملحمة حيناً يتكلّم عن فضائل أهل البيت ويمدحهم، وآخر يعبّر عن حزنه وتوجّعه لما أصابهم من مصائب. وإليک ما وصلت إليه المقالة من مضامين الرثاء فی شعره:

١.٦ وصف يزيد وفجوره وأعماله السيئة

قبل أن يتعرّض الشاعر لأحداث كربلاء يقدّم وصفاً ليزيد، فی رأس دولة إسلامية، وفسقه وتهاونه بالدين تمهيداً لبيان أحداث كربلاء، ولعلّ ذلک مقدّمة تبين ضرورة حركة الإمام الحسين (ع). فيزيد مترف سكير يقضی معظم وقته بمعاقرة الخمر وملاعبة قردته وكلابه لا يكترث بشعائر الدين بل يستخفّ بها. ومن قول الشاعر فی عدم اهتمام يزيد بشعائر الدين والاستخفاف بها:

رَافِعَ الصَّوتِ دَاعِياً لِلفَلاحِ　　اِخفِضِ الصَّوتَ فِی أذَانِ الصَّبَاحِ
أَلفُ «أَللهُ أكبَر» لا تُسَاوِی　　بَينَ كَفَّی يزَيدَ نَهلَةَ رَاحِ

(سلامة، ١٩٨٦: ٢٠٤)

و أیضاً یقول عن لسان یزید:

لَـا تُعَکّـر صَـفوَ المَلِیـک بِـذِکرِ (م) اللهِ فَالـذِّکرُ مَـأتَمُ الاَفـرَاحِ

(المصدر نفسه: ۲۰۵)

کما یشیر إلی عیوبه الکثیرة ضمن عتابه لمعاویة بسبب اختیاره یزید خلیفة لدولـة إسـلامیة؛ بینما یزید تعرّی من کلّ فضیلة. وقد أجاد الشاعر فی تعبیره حیث استخدم الاستعارة التهکمیة:

یـا ابـنِ هِنـدٍ أَبَیـتَ إِلَّـا یزِیـداً رَایـــةً لِلرَّشـــادِ وَ الإِصـــلَاحِ
أَنتَ رُغمَ العُیوبِ کاللَّیلِ جُنحـاً قَطرَةٌ فِـی هُتُونِـهِ الضَّحضَـاحِ[11]
وَ یزِیدُ مِـن کـلِّ فَضـلٍ تَعَـرّی وَ تَبَـــاهَی بِعَرِیـــهِ الفَضَّـــاحِ

(المصدر نفسه: ۲۰۷ – ۲۰۸)

وفی غمرة هذا الانحطاط والخنوع کان لا بدّ للحسین(ع) أن یصرخ بوجه الطاغیة قائلا: لا.

۲.٦ خطاب الأشخاص ضمن سرد التاریخ لبیان أغراض

یری الشاعر مشاهد کربلاء حیة أمام عینیه، ولا یستطیع أن یکون بمنأی عن أحداثها بـل یتـأثّر بما یری ویؤلمه ذلک ویغریه. فیمیل مع المظلوم علی الظالم، ومع الخیر علی الشر. فحینمـا تقـرأ أشعاره تجده ینادی فی مواقف کثیرة من شـعره أبطـال الإسـلام بأسـمائهم الکریمـة وأنسـابهم الشریفة ویحدّثهم، کما یخاطب أعـداءهم ویکنّـیهم بعصـبة الشـرّ وأولاد الثعـابین وأبنـاء هنـد. فیوبّخهم مزدریاً بأنسابهم، وکأنّه یتعمّد فی ذلک، الخطاب بالأنساب لیشیر إلـی خلفیـات تلـک الواقعة فی صدر الإسلام.

أمّا فی خطاب الأعداء فیقصد توبیخهم کما یعاتبهم بسبب أفعالهم الجریئة ونکرانهم حقوق أهل بیت النبی(ص). ومن ذلک قوله فی عتاب معاویة وقد ناداه بابن هند یعاتبـه علـی اختیـار یزیـد للخلافة، وهو المعروف بإباحته للمحرّمات، وذلک مع وجود الحسین الذی هو أولی الناس بتولّیها:

یـا ابـنَ هِنـدٍ أَبَیـتَ إِلَّـا یزِیـداً رَایـــةً لِلرَّشـــادِ وَ الإِصـــلَاحِ
لَیـتَ عَینَیـک تَبصِـرَانِ إِمَـامَ (م) الهُدَی، هذا إِمَامُ کلِّ إِبـاحِی

(المصدر نفسه: ۲۰۷)

والطریف أنّه یقارن فی هذا البیت بین معاویة نفسه وابنه فی الآثام فیری أنّ معاویة مع کلّ ما یروی عن غطرسته وطغیانه لا یساوی عشر معشار ما بلغه یزید بفسقه العلنیّ:

رُغمَ آثامِک الجِسَامِ ابنَ هَندٍ أنتَ مِنهُ کریشَةٍ فِی جنَاحِ

(المصدر نفسه: ۲۰۸)

ومن قوله معاتباً قائد الجیش الذی أمر بدیاس جسم الامام (ع) وأصحابه لعدم استحیائه:

أوطَأوا الخَیلَ ظَهرَهُ فَاستَعاذَ (م) الصّلبُ وَ انقَضَّتِ الحَنَایا التِوَاءَا[۱۲]

أ نِعالُ الاَفرَاسِ دَاسَت حُسَیناً؟ یا ابنَ (سَعدٍ) هَلّا قَضَیتَ حَیاءَا

(المصدر نفسه: ۲۸٤)

ومن ذلک هذه الأبیات التی یخاطب فیها یزید بعد أن قام بضرب رأس الحسین الذبیح والتی تؤید ماسبق من أنّ الشاعر یتوخّی البحث عن خلفیات الواقعة:

جِیءَ بالرَّأسِ هَامَة السِبطِ تُلقَی بَینَ کفَّی یزیدَ بِئسَ الّدانِق[۱۳]

یتَلَهَّی بضَربِ رَأسِ الحُسَینِ هَکذَا الجَدُّ رَأسَ حَمزةَ خازقُ[۱٤]

حَطِّم القَیدِ یا یزیدُ فَأنتُم طُلَقَاءُ لِجَدِّهِم وَ عَتَائِقُ

(المصدر نفسه: ۳۰۳)

ویری سلامة أنّ ضرب رأس الحسین (ع) سبط رسول الله من قبل یزید إنّما یشیر إلی وقعة لها جذورها فی تاریخ الإسلام حیث اقتدی الرجل بجدّته التی مزّقت کبد عمّ النبی وما ذلک إلاّ حقد کشف عنه مرّ الزمن. ومن هنا یزدریه بنسبه الدنیء وآبائه الطلقاء لجدّ الحسین (ع).

وفی خطابه للإمام (ع) یشیر إلی نسبه العظیم و یتغنّی بمجده؛ کما فی هذا البیت:

یا ابنَ بنتِ الرَّسُولِ حَسبُک فَخراً أنّک السِّبطُ شَرَّفَ الشُّهَدَاءا

... دَمُک السَّمحُ یا حُسَینُ ضِیاءٌ فِی الدَّیاجیر یلهمُ الشَّعَرَاءا[۱٥]

أیُّ فَضلٍ لِشَاعِرٍ، مِنک یعتَامُ (م) اللَّآلِی، یصُوغُ مِنهَا رِثَاءا[۱٦]

(المصدر نفسه: ۲۸۷)

فکفی بالحسین (ع) فخراً أنّه سبط النبی (ص)، قتل عطشان من أجل اصلاح دین جده، فأصبح سید الشهداء، فهو مصباح الهدی وسفینة النجاة. دمه هدایة فی غیابات الظلمة یرشد کلّ انسان، فالشعراء یستلهمون منه فینشدون رثاءاتهم. فلعلّنا بقراءة هذه الأبیات نسایر الشاعر فی أحاسیسه المرهفة ونحسّ مدی تأثّره بمصرع الحسین (ع)؛ کما یقول کمال السید عن هذه الأبیات: «إنّ المخاطب یکاد یحسّ بأنّ الشاعر یقف علی جسد الحسین (ع) و یرثیه باکیاً» (السید، ۲۰۰٤: ۱۲٤).

كما يقوم بمؤاساة أهله بعد ما شاهدوا مصرع الحسين(ع) وأصحابه:

إيهِ أُختَ الحُسَينِ بنتَ عَلِي   حَمَلتِ مَا يزَلزِلُ البَطحَاءا
... فَاصبِرِي فَالحَياةُ دَارُ عَذَابٍ   حَسبُک الخُلدُ جَنَّةً فَيحَاءا[۱۷]

(المصدر نفسه: ۲۸۵)

فزينب(س) بطلة كربلاء بعدما عرض لها من المصائب ما تأبى البطحاء أن تحمّلها، صبور لا ترى فی استشهاد أحبابها، فی نصف يوم، إلّا جميلاً؛ لانّها بنت علی(ع) و أخت الحسين(ع). لا تنظر إلى الأحداث نظرة العامی فصبرها جميل.

۳.٦ المقابلة بين سمات الفئتين

إنّ الشاعر يتعرّض لوصف سمات الفئتين كثيراً فيصف الإمام و أصحابه ويزين وصفه باستخدام المحسّنات البديعية وغيرها كما يتعرّض لوصف جماعة الخصم فيشوّههم بتعابيره، وكلّ ذلک فی موضعين: إذ يقف حيناً فی وصفهما معاً فيقارن بينهما؛ ونستطيع أن نجد ذلک فی وصفه لقلّة عدد فئة الإمام وحسن تعليله لذلک. كما يشير إلى الخصم وكثرتهم فيستعير لهم ألفاظا يزدريهم بها، قائلاً:

وَ مَشَى مَوكبُ الحُسَينِ قَلِيلَ   (م) العَدِّ وَ الدُّرُّ لَا يكونُ تِلَالا
بَل حُبُوبٌ قَلِيلَةٌ تَبهَرُ   (م) الآفَاقَ لَمعاً وَ تَملَأُ الآصَالا
لَا يكونُ الطَّغَام إلَّا كثِيراً   كلَّ أرضٍ تَحوِی القَذَى وَالنِّمالا[۱۸]
أوَلَيسَ الجرَادُ وَ هوَ حَقِيرٌ   يكسِفُ الجَوَّ وَ الثَّرَی أرجَالا[۱۹]

(المصدر نفسه: ۲٤۵)

أمّا هذه المقارنة فلا تتوقّف عند ذلک، بل يقوم الشاعر فی مواقف مختلفة عديدة بعرض صفات سلبية لجماعة الخصم فيبرزها عندهم، كما يتعرّض لفئة الامام(ع) فيصفهم بصفات إيجابية فحيناً يشبّههم بالنور وآخر بالوردة وغير ذلک. فهذه الأوصاف الجزئية عن الأشخاص فی كلتا الفئتين يمهّد لإيجاد صورة كلية فی ذهن المخاطب عن المقابلة بين الخير والشرّ أو النور والظلمة. وذلک يمكن أن يجده المخاطب فی مواقف مختلفة من شعره ومنها وصفه لوجه شمر وكراهته:

أبرَصاً كانَ ثَعلَبِی السِّمَاتِ   أصفَرَ الوَجهِ أحمَرَ الشَّعَرَاتِ
نَاتِئَ الصَّدغ أعقَفَ الأنفِ   (م) مُسوَدَّ الثَّنَايا، مُشَوَّهَ القَسَمَاتِ[۲۰]

... مُنتنَ الرِّيح لَو تَنَفَّسَ فِى (م) الأَسحَار عَادَ الصَّبَاحُ للظُّلُمَاتِ[٢١]
... رَعَبَ الأُمَّ حِينَ مَولِدِهِ المَشؤُوم وَ الأُمُّ سَحنَةُ السَّعلَاة[٢٢]

(المصدر نفسه: ٢٥٧ – ٢٥٨)

وكثيراً مايصف الشاعر جماعة الخصم بوصف يشبه ذلک .أمّا فى وصف الإمام(ع) وأصحابه فيستخدم عبارات جميلة كقوله فى عبد الله الرضيع، ابن الإمام الأصغر حين يحضنه الحسين(ع) ويأتى به أمام الخصم ليستسقيهم له:

ضَمَّهُ الوَالِدُ اللَّهِيفُ لَعَلّ (م) الحُبَّ يقصِى عَنِ الصَّغِيرِ العَنَاءا
أى طِفل؟ كأَنَّهُ الوَردَةُ الحَمرَاءُ (م) جَفَّت، لَم تَشرَبِ الأَندَاءا
فِى صَفَاءِ الشَّمعِ المُذَابِ جَبِينٌ كلَّمَا الحِلمُ مَاجَ فِيهِ أَضَاءا

(المصدر نفسه: ٢٧٥)

أوكقوله فى ابنه الأكبر:

فِى بَهَاءِ الرَّبِيعِ يطلَعُ بَسَّاماً (م) وَ يفتَرُّ زَنبَقاً وَ مَلَابا[٢٣]
تَلثَمُ الشَّمسُ وَجهَهُ وَ تَمَنّى لَو حَبَاهَا مِن حُسنِهِ جلبَابا[٢٤]

(المصدر نفسه: ٢٧٠ – ٢٧١)

أمثال ذلک أيضاً كثير فى شعره، وبذلک كلّه تمكّن الشاعر أن يصوّر فى ذهن المخاطب صورة كلّية منتزعة عن الصور الجزئية وهى المقابلة بين النور والظلمة أو الخير والشر.

٤.٦ ذكر فضائل الامام(ع)

إنّ الشاعر فى مواقف كثيرة من الملحمة، يتكلّم عن فضائل أهل البيت(ع) خاصّة الإمام الحسين(ع) كما يشير إلى بطولته الجسدية فى الحرب حيث لا يتجرّأ الخصم أن يناضله من قرب:

لَا سَبِيلَ إِلَيهِ إِلَّا سِهَامٌ فَتَنَادَوا وَ أَمطَرُوهُ البَلَاءا
أَنصُلاً يُطلِقُونَهَا مِن بَعِيدٍ فَتَرَامَى فِى جِسمِهِ عَمياءا

(المصدر نفسه: ٢٨٢)

وأيضاً يتكلّم عن بطولته النفسية إلى جانب بطولته الجسدية؛ فلم يبر أصبر منه على المكاره حيث بقى مفرداً بين أصحابه المقتولين عطشان حزيناً جريحاً وأمامه خيل الأعداء:

مُنذُ صَـارَ الحَدِيـدُ نَصـلَةَ سَـيفٍ أو سَــنَاناً لِصَــعدَة سَــمرَاءا[٢٥]
لَم يشَاهِد مِثلَ الحُسَـين شُـجَاعاً وَ صَــبُوراً يغَالِــبُ الأَســوَاءا
ظَامِئـاً، ثَـاكلاً، لَهِيفـاً، جَرِيحـاً فِـى عَـدُوٍّ يكـاثِرُ الـدَأمَاءا[٢٦]

(المصدر نفسه: ٢٨١)

كما يمدحه فى موقف آخر ويصفه بالشجاعة والعزة فإنّ الحسين(ع) لايزال يستعدّ لقبول أىّ مكروه لأنّه لايستهدف إلّا الحق:

لَـا يمُـوتُ الحُسَـينُ إلّـا هَصُـوراً لَن يمُوتَ الحُسَـينُ مَـوتَ الشَّـاة
... إنَّ صَدراً يستَهدِفُ الحَقَّ صِرفاً لَيسَ يخشَى طَعنَ القَنَا وَ الظِّبَاتِ[٢٧]

(المصدر نفسه: ٢٦٦)

٥.٦ بيان وفاء أصحاب الحسين(ع) وتضحيتهم له

إنّ كربلاء منارة البطولة والفداء، فأصحاب الحسين(ع) ينطلقون إلى الموت بعزّة وكبرياء ثـائرين على الظلم مع أنّهم لا يأملون نصراً عسكرياً:

وَ تَهَـاوَى النُّسُـورُ وُلـدُ عَلِـى فَاســتَمَاتُوا أشَاوِســاً كبَــرَاءا
ثَبَتُـوا فِـى العِـرَاک لَـا يـأمَلُونَ النَّصــرَ لَكــن ضَــحِيةً وَ افتِــدَاءا

(المصدر نفسه: ٢٧٦)

ومنه قوله عن لسان الامام(ع) لحظة استشهاده، إذ يأتيه عبدالله بن الحسن (ابن أخيـه) وهـو فتى لم يبلغ الحلم ليضحّى بنفسه دفاعاً عنه، ولا تستطيع زينب(س) أن تمنعه. لأنّ الفتوّة لا يمنع منها بل يغريها المنع:

فَرَّ مِن خِيمَةِ النِّسَاءِ وَ جَـاءَ العَـمَّ (م) يفـدِى، فَمَـا أَجَـلَّ الفَـدَاءا
... حَاوَلَـت زينَـبُ تَصُـدُّ فَتَاهَـا مَـن يصُـدُّ الفُتُـوَّةَ الهَوجَـاءا؟
اِحبِسِيهِ قَالَ الحُسَينُ فَلَـم تُفلِـح (م) وَ زَادَت علـى اللَّظَـاءِ لَظَـاءا

(المصدر نفسه: ٢٧٩)

٦.٦ بيان عظمة المصيبة

يقف الشاعر فى مواقف عديدة من شعره فيتكلّم عن فظاعة ما أصاب الحسـين(ع) وأصـحابه. ومن ذلک: